البحث رقم (٦)

السلوك المرضى و علاقته بالعملية الإبداعية

(دراسة تاريخية و تحليلية لحياة و فن "ليوناردو دافنشى")

Sick Behavior and its Relationship to the Creative Process (Historical and Analytical Study of the Life and Art of "Leonardo da Vinci")

أ. م. د / محمد عبد السلام عبد الصادق محمد هلال

أستاذ مساعد تاريخ الفن– قسم التصوير– كلية الفنون الجميلة – جامعة الاسكندرية

ملخص البحث :

يتناول البحث علاقة السلوك غير المألوف للمبدع بتجربته الإبداعية ، و كيف يلعب المرض دورا مؤثرا فى تغير الفكر و الرؤى لدى المبدع ، و يكون ذا تأثير على طريقة تناول الموضوع واختلاف المهارات ، كل ذلك من خلال دراسة تحليلية و تاريخية لسيرة أحد أعلام عصر النهضة ، و عبقرى الفن و العلوم على مر العصور ""ليوناردو دافنشى" ، حيث يناقش البحث ما ورد فيما كتب عنه من وثائق تاريخية و ما ورد فى مذكراته من أنه عاش نباتيا ، يحرم على نفسه أكل كافة أنواع اللحوم ، حتى أدى ذلك فى النهاية لإصابته بجلطة دماغية أثرت على ذراعه ، و انعكست على سلوكه و تصرفاته سلبيا ، و غيرت شكل الإبداع الفنى لديه ، خاصة خلال السنوات الأخيرة من حياته.

Summary:

The research is discussing the relation between creator's up normal behavior and his creative. And how the disease plays an affective role in changing thoughts, visions, subject modifications and skills of the creator. All these through historical study and analysis for the life of one of the most famous men in art and science of all ages "Leonardo da Vinci". The research is showing through the dairy of da Vinci and the historical documents that he was vegetarian, and forbid eating any kind of meat. This was the main reason for his suffering of hemiparesis that had negative impacts on his arm, behaviors and doings, and changed the shape of his artistic creativity, especially during the last years of his life.

مشكلة البحث :

تتركز مشكلة البحث فى محاولة إيجاد الصلة بين السلوك المرضى (أو غير المألوف فكريا أو فسيولوجيا) و بين العملية الإبداعية ، و ذلك من خلال استعراض التجربة الحياتية و الفنية لأحد أهم اقطاب الفن فى عصر النهضة باعتباره ذلك العصر الذى شهد تحولا جذريا فى رؤية المجتمع للمبدع و إنتاجه الفنى ، و حيث تصبح دراسة الفنان تحتمل أكثر من رؤية و تناول حتى يمكن القول بان الدراسة التاريخية للفنان و تجربته هى دراسة متجددة ، نابضة بالحياة ،لا تخضع لثوابت ، و لا يمكن معها أن نعتبر تاريخ المبدع و تجربته قد بلغ غاية التقييم أو نهايته.

أهداف البحث :

تتركز أهداف البحث فى النقاط التالية :

أولا : إعادة تقييم التجربة الإبداعية للفنان "ليوناردو دافنشى" فى ضوء ما كتب عن سلوكه الاجتماعى غير المألوف فى عصر.

ثانيا : إلقاء الضوء على عدد من الأعمال الفنية التى جسدت أفكار و رؤى "دافنشى" حول معانى و قيم الحياة بأشكالها المتعددة.

ثالثا : محاولة إيجاد العلاقة من خلال الدراسات العلمية الحديثة بين السلوك المرضى و الإبداع المتميز الذى خلفه أحد عباقرة الفنون و العلوم على مر العصور.

رابعا : استعراض الوثائق التاريخية الدقيقة التى تناولت التفاصيل الدقيقة و المتفردة فى تجربة "دافنشى" الإبداعية و علاقتها بالنمط المجتمعى فى عصره.

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث فى النقاط التالية :

أولا : إيجاد العلاقة بين السلوك المرضى و العملية الإبداعية من خلال وجهات نظر علمية يتم تطبيقها على أحد أهم أعلام الفن و العلوم الطبيعية فى التاريخ قاطبة.

ثانيا : الاستناد على الوثائق التاريخية التى أرخت لحياة "ليوناردو دافنشى" و أعماله الفنية فى سبيل تقييم أكثر وضوحا و موضوعية لإبداعه و فكره.

ثالثا : الإشارة إلى إمكانية استغلال السلوك المرضى الإنسانى و توظيفه بشكل إيجابى فى إطار الإبداع الخلاق لكل ما هو جديد و مبتكر.

رابعا : تحفيز الباحثين فى مجال تاريخ الفنون لمحاولة التعمق فى السير الذاتية للفنانين ، وذلك فى سبيل إيجاد نقاط بحثية جديدة تضيف لأفرع التاريخ و النقد الفنى.

خامسا : القدرة على تحليل العمل الفنى تقنيا و فنيا من خلال علاقته بالسلوك الاجتماعى والفردى للفنان ، و ليس تأسسا على الانطباع الشخصى أو التتبع التاريخى النمطى.

مقدمة :

فى مؤلفه حول العلاقة بين الإبداع و السلوك المرضى لبعض الأدباء يشير الكاتب "جوليان بوجوسلافسكى" "Julien Bogousslavsky" إلى أن ثمة تغيرات طرأت على شخصية الشاعر الفرنسى "جويلوم أبوللينير" "Guillaume Apollinaire" (١٨٨٠-١٩١٨م) بعد الحرب العالمية الأولى ، و قد أرجع الباحثون ذلك إلى أنه ظل يعانى حتى نهاية حياته من صداع نصفى مزمن ، أدى به لاحقا إلى شلل نصفى ، و هو نفس الأمر الذى حدث سابقا مع الشاعر الفرنسى "جاى دى موباسان" "Guy de Maupassant" (١٨٥٠- ١٨٩٣م) ، وانعكس على أشعاره اللاحقة نتيجة إصابته بالمرض.(Bogousslavsky, 2005, p. 90)

على الجانب الآخر يؤكد الكاتب "ميشيل ج. هينيريشى" "Michael G. Hennerici" فى كتاب "Neurological Disorders and Creation" أن الاضطرابات العصبية أحيانا ما تكون حافزا للتجديد فى تجارب المبدعين ، و قد ركز فى دراسته على نماذج الفنانين فى القرن العشرين باعتباره عصر التحولات الحادة سياسيا و اقتصاديا ، و من حيث كونه أعاد تشكيل المفاهيم فى وعى الإنسان الحديث ، فذكر- مبرهنا على نظريته- جانبا من سيرة

المصور الأمريكى- الهولندى الأصل- "ويليم دى كونينج" "Willem de Kooning" (١٩٠٤- ١٩٩٧م)، و سيرة المصور التأثيرى الألمانى "لوفيس كورينث" "Lovis Corinth" (١٨٥٨- ١٩٢٥م) و غيرهما.(Hennerici, 2010, p.4)

لذا.. و فى نفس السياق.. تظل السيرة الذاتية للفنان و المعمارى "ليوناردو دافنشى"- بما يعتريها من غموض حول تفاصيل حياته و سلوكه و حبه المتطرف لكافة أشكال الحياة مجسدة فى الحيوانات و الطيور- مثار جدل و بحث مستمر فى محاولة لكشف أسرار عبقريته ، والمعانى الكامنة فى أعماله الفنية ، و أسباب إخفاقاته و تدهور صحته ثم موته المفاجىء.

كان "ليوناردو دافنشى" (١٥ أبريل ١٤٥٢- ٢ مايو ١٥١٩م) معماريا و موسيقيا ودارسا لعلوم التشريح علاوة على كونه مخترعا و نحاتا و مهندسا ميكانيكيا و مصورا عاش خلال ما

يعرف فى تاريخ الفنون باسم "عصر النهضة" ، و تذكر الوثائق التاريخية التى جمعت عن حياته أنه كان نباتيا ، محبا و محترما للحيوانات ، و لما كان النظام النباتى فى التغذية ذا آثار إيجابية و سلبية على النظام الدماغى و النشاط العقلى بشكل خاص ، فقد عانى "دافنشى" فى سنواته الأخيرة بعض الاضطرابات فى الفص المخى الأيمن.

تحاول الدراسة التالية إيجاد علاقة محتملة بين النظام الغذائى النباتى الذى كان يتبعه "دافنشى" و بين رحلته فى مجال الإبداع الفنى و المخترعات التى سبقت عصره بعشرات القرون ، و ما أدى به فى النهاية إلى الإصابة بما يشبه السكتة الدماغية تبعا لآراء العلماء والمؤرخين فى هذا الشأن ، بعد أن ترك ميراثا غير مسبوق من الإبداع يعكس مدى ما كانت تتسم به هذه الشخصية من قدرات استثنائية مثيرة للاهتمام و البحث.

البحث

كان معاصرو "دافنشى" يصفونه بأنه "النموذج الأصلى لرجل النهضة" "Archetype of Renaissance Man" و "عبقرى العالم" ، و بالفعل.. لقد حقق دافنشى شهرة من خلال عدد من الأعمال العظيمة ، منها لوحته "العشاء الأخير" و لوحته الأشهر "موناليزا" ، و هى أعمال لازالت تثير جدلا بمضمونها و معالجاتها التشكيلية الفريدة ، كذلك كان معروفا بوضعه لتصميمات عدد من الاختراعات التى تعد اليوم أساسا لتكنولوجيا العصر الحديث ، على الرغم من أن القليل جدا من هذه التصميمات و الأفكار تم تنفيذها أثناء حياته ، علاوة على ذلك فقد كانت له إسهاماته فى مجال علم التشريح ، و علوم الفلك و هندسة التحصينات العسكرية.

نشرت السيرة الذاتية لـ"دافنشى" لأول مرة على يد الرسام و المعمارى الإيطالى "جيورجيو فازارى" "Giorgio Vasari" (١٥١١- ١٥٧٤) و ذلك فى عام ١٥٥٠م ، ضمن كتاب بعنوان " The Lives of the Most Excellent Italian Architects, Painters and Sculptors" "حياة أشهر المعماريين و المصورين والنحاتين الإيطاليين" ، معظم المعلومات التى أوردها "فازارى" كان قد استقاها مباشرة من معاصرى "دافنشى" ، وتظل هى المعلومات الأقيم حول حياة "دافنشى".

هو ابن غير شرعى لكاتب عدل يدعى "بييرو دافنشى" و امرأة قروية تدعى "كاترينا" ، فى مقاطعة "فينشى" "Vinci" بمدينة "فلورنسا" "Florence" ، أظهر "ليوناردو" عبقرية وموهبة غير مسبوقتين فى العالم ، مغلفتين كلية بروح "عصر النهضة" الإيطالى ، و كان جليا فى شخصيته أنه فى طريقه لخلق أشكال أعلى و أعمق من التعبير فى مجالات متنوعة من المعرفة و الفنون ، كموسيقى و معمارى و نحات و مصور و عالم تشريح و فلك كان- ولازال- يعد واحدا من أعظم عباقرة العصور.

قالت عنه المؤرخة الفنية "هيلين جاردنر" "Helen Gardener" أن عمق و مجال اهتماماته غير مسبوق فى التاريخ" (Gardener, 1975) ، كما كتب عنه المؤرخ "جان بول ريختر" "Jean Paul Richter"[١٦٧] فى مؤلفه :

[كان ليوناردو يوصف دائما بأنه الرجل الذى لا ينافس فضوله الجامح إلا قواه الاستثنائية فى الاختراع و الإبداع و هو أكثر المصورين فى العالم موهبة على مر العصور ، تبدو شخصيته و عقله و كأنهما لرجل خارق ، غامض و بعيد](Richter, 1977, p.23).

حقا كانت شخصية "دافنشى" محاطة بهالة من الغموض ، و كانت سلوكياته أحيانا غير مقبولة ، و خارج استيعاب المنطق ، فبجانب طبيعته الفنية كان ذا طبيعة اجتماعية متفردة ، وقد تجمع لدى المؤرخين لمحات عن حياته من خلال كتاباته الشخصية و من خلال ما كتب فى وثائق السيرة الذاتية المبكرة عنه.

تذكر الوثائق أن "دافنشى" كان محبا للحيوانات ، و لم ينعكس هذا الحب على السلوك الفردى و الاجتماعى لـ"دافنشى" فقط ، بل إن المتأمل فى أعماله الفنية سيلحظ كما لا يمكن إغفاله من الدراسات السريعة Sketches و الرسوم التى أوقفها على تناول الحيوانات و الطيور و الحشرات و غيرها من الكائنات الحية خلاف البشر (شكل ١) و (شكل ٢) ، لم تكن كل تلك الرسوم مجرد نتاج شغف فنى ، بل كانت تعبيرا حقيقيا عن حب "دافنشى"– الذى يبلغ حد التطرف أحيانا– للحياة ذاتها ، الحياة فى صورتها المجردة ، بحيث لا تقل حياة شجرة أو طائر قيمة – فى نظره– عن حياة الإنسان ، و قد عبر "دافنشى" نفسه فى مذكراته عن هذا المفهوم الأقرب لمعتقد صوفى.

---

[١٦٧]– يوهان بول فريدريش ريختر (١٧٦٣– ١٨٢٥م) : كاتب ألماني ، كان ابناً لأحد المدرسين وعاش في ظروف شديدة الفقر ، اتجه إلى الكتابة والتأليف ، وبعد فترة طويلة من رفض دور النشر لأعماله كتب أعمالاً جعلته مشهوراً لسنوات قليلة ، وعندما كتب أحب أعماله إلى قلبه (تيتان ، سنوات المراهقة) لم يجد نجاحاً يذكر ، فاعتزل الحياة إلى أن توفى فى الثانية و الستين من عمره.

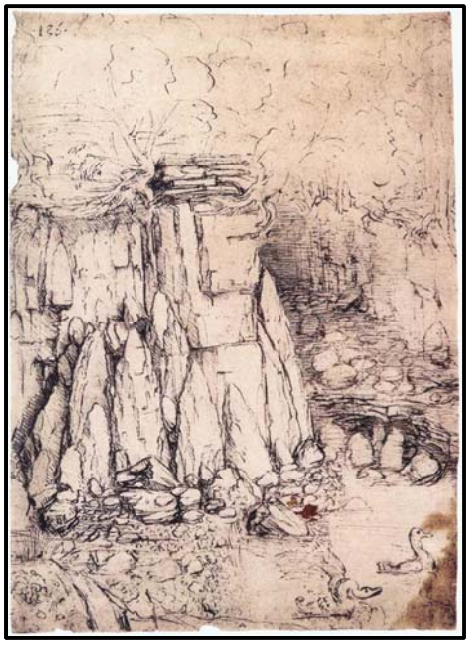

(شكل ١) دافنشى- جرف صخرى و بط-
قلم و حبر على ورق- ١٤٨٥
مقتنيات Windsor – Royal Library

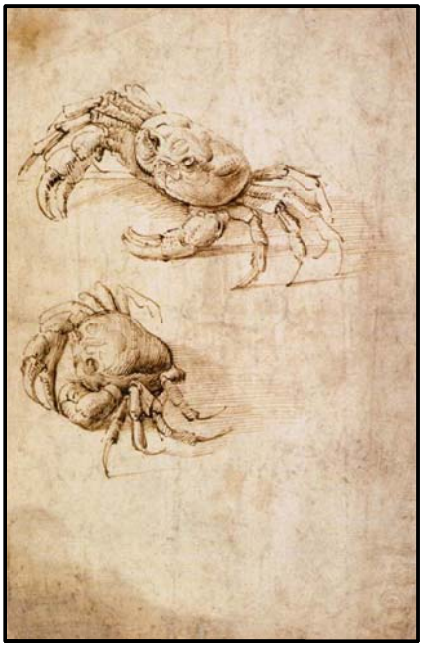

(شكل ٢) دافنشى- دراسة لسرطان البحر-
غير مؤرخ
مقتنيات Cologne -Wallraf-Richartz-Museum

كان "ريختر" أول من قام بفك شفرات مذكرات "دافنشى" الشخصية ، حين قال فى كتابه "The Literary Works of Leonardo da Vinci" "الأعمال الأدبية لليوناردو دافنشى") :

[نعرف أن "ليوناردو" كان شخصا نباتيا ، و ذلك من خلال معلومات عابرة وردت ضمن الرسائل الأولى التى أرسلها "أندريا كورزالى" " Andrea Corsali"[١٦٨] لـ "جوليانو ميدتشى" "Giuliano de Midici" (راعى "دافنشى" وشقيق البابا "ليو الخامس" "Leo X") ، بعض الملحدين (فى إشارة خاصة للهندوس) لا يتغذون على أى طعام يحوى دما ، كما يحرمون إيذاء أى شكل

[١٦٨]- أندريا كورزالى (١٤٨٧- ؟) : مستكشف ورحالة إيطالى عمل فى خدمة عائلة الميدتشى ، ارتحل إلى آسيا و البحار الجنوبية ، وكتب عشرات الرسائل و التقارير حول رحلاته ، و تكشف رسائله أنه من أوائل المستكشفين الذين توقعوا وجود قارة أستراليا.

من أشكال الحياة ، و قد كان كان "دافنشى" معتنقا للأفكار نفسها]
(Richter, 1977, p.17)

فى عام ١٨٩٨م كتب المؤرخ "إيوجين مونتز" "Eugene Muntz"[١٦٩] فى كتابه " Léonard da Vinci, l'artiste, le penseur, le savant" "ليوناردو دافنشى : الفنان ، والمفكر و الباحث" أن "رسائل كورزالى تكشف كيف كان دافنشى يحرم على نفسه أكل اللحوم، و هو ما يبدو اليوم أشبه بموضه بين آلاف الأشخاص على مستوى العالم". (Muntz, 1899, p.42)

بينما كتب "إدوارد ماك كوردى" "Edward MacCurdy" فى كتابه " The Mind of Leonardo da Vinci" "عقل ليوناردو دافنشى" قائلا :

[يحكى "فازارى" مدللا على عشق "دافنشى" للحيوانات ، كيف أنه كان يدور فى "فلورنسا" ، و أينما وجد متجرا لبيع لطيور ، كان يحرص على ألا يظل طائرا حبيس القفص ، و كان أحيانا يعرض على البائع نقودا شرط أن يخرج الطيور من أقفاصها و يطلقها لتنال حريتها..!]
(MacCurdy, 1928, p.12)

و فى كتاب "Leonardo : Discovering the Life of Leonardo da Vinci" نقرأ للكاتب "براملى" "Bramly" تعليقا يؤكد نفس المعلومة "كان حب "دافنشى" الشديد للحيوانات وراء سلوكه الغذائى ، حيث كان نباتيا تماما" (Bramly, 1991, p.9) ، و فى نفس السياق يكتب الناقد و الفنان الإيطالى "أليساندرو فيزوسى" "Alessandro Vezzosi" (أحد الباحثين المتخصصين فى حياة و فن "دافنشى") فى كتابه " Leonardo da Vinci– The Mind of the Renaissance" "ليوناردو دافنشى– عقل النهضة" أن "دافنشى كان يحرم على نفسه أكل اللحوم و كأنه أحد معتنقى البوذية" (Vezzosi, 1997, p.24).

[١٦٩]– إيوجين مونتز (١٨٤٥– ١٩٠٢م) : مؤرخ فرنسى و أستاذ تاريخ فنون عصر النهضة ، عمل كمحاضر بالمدرسة القومية للفنون الجميلة بفرنسا بين عامى ١٨٨٥ و ١٨٩٣م ، من أشهر مؤلفاته " Notes sur les mosaïques de l'Italie" عام ١٨٧٤م ، و "Histoire de la tapisserie " عام ١٨٨٢م.

لم يقف تعلق "دافنشى" الشديد بالحيوانات خلف ذلك النظام الغذائى الصارم فقط ، بل لقد انعكس بشكل كبير على إبداعه الفنى ، فنحن نكاد نلمس مدى ما كانت يعتمل فى داخله من أفكار و رؤى حول مفهومه عن جوهر الحياة فى تلك الأعمال المتأخرة تاريخيا ، حيث صار يتخذ من الأسطورة مصدرا أساسيا لاستلهام أعماله ، فنجد امتزاج أشكال الحياة بين البشر والطيور و سائر الكائنات الحية ، أو بمفهوم آخر.. فقد أراد "دافنشى" من خلال لوحاته الأسطورية أن يشير إلى مفهوم "وحدة الحياة".(شكل ٣)

حيث نرى فى اللوحة تزاوج "زيوس" كبير آلهة الإغريق ، والذى تجسد فى عيئة الطائر (البجعة) بالمرأة "ليدا" ، بينما تبدو بشائر نسلهم أطفالا تخرج من البيض ، فى امتزاج تام مع عناصر الطبيعة التى تحيط بهم وتشغل مساحة الخلفية.

(شكل ٣) دافنشى– لوحة "ليدا و البجعة"– ألوان زيتية على خشب– ١٥١٠م
من الأعمال التى تكشف مفهوم وحدة الحياة تبعا لأفكار "دافنشى"
من مقتنيات Salisbury –Wilton House

و حين يتناول "دافنشى" بريشته عناصر الفاكهة و الخضروات و أوراق الشجر يتجاوز إحساسه مجرد تسجيل عناصر الطبيعة الصامتة إلى التوحد مع شكل آخر من أشكال الحياة ، فنلمح تلك الرقة المفرطة و الدقة فى نقل التفاصيل (شكل ٤) ، حيث يبدو فى العمل نفسه بعض الرسوم والتخطيطات العاجلة الأخرى التى تتجسد على نفس السطح الذى رسم عليه ، وكأن "دافنشى" كان تنتابه الأفكار حول مخترعاته و تصميماته بينما هو متوحد مع عناصر الحياة النباتية.

ولا عجب إزاء ذلك ، فالفنان الذى كان يؤثر الغذاء النباتى على ماعداه استلهم من ثمار الطبيعة– برؤية المبدع– مثيرا جماليا ، و رأى فيها– من ناحية أخرى– جسدا ينبض دفئا وحيوية و روحا جديرة بالتأمل ، و تمتلىء بالقيم الروحانية و الرموز التى لا تخلو من جلال و قدسية. (شكل ٥)

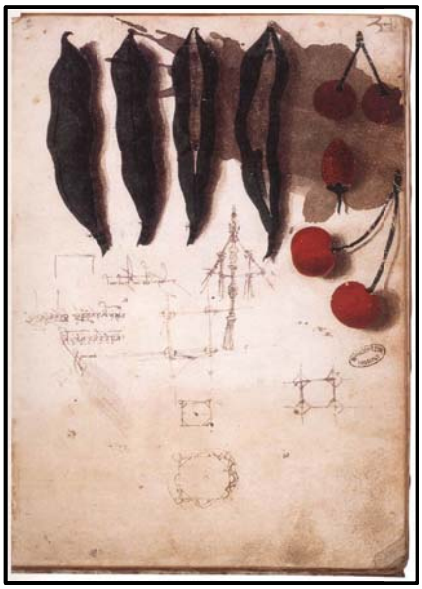

(شكل ٤) دافنشى- فاكهة و خضروات و رسوم- قلم و حبر ملون على ورق- ١٤٨٩م
مقتنيات Paris -Institut de France

(شكل ٥) دافنشى- دراسة لنبات نجمة بيت لحم و نباتات أخرى- قلم و حبر و باستيل أحمر على ورق- ١٥٠٧م
مقتنيات Windsor -Royal Library

تكشف العديد من الوثائق بشكل مؤكد أن "دافنشى" أصيب فى السنوات الأخيرة من حياته بمرض عصبى هو الشلل العضلى أحادى الجانب أو ما يعرف طبيا باسم "Hemi paresis" ، وقد أشار "فيزوسى" فى مؤلفه إلى ذلك بقوله :

[لم يؤثر هذا الشلل فى قدرة "دافنشى" الفنية على الرسم ، لكنه أعاق بالتأكيد قدرته على التحرك ، من المحتمل أن مرضه هذا منعه من الوقوف ، و القدرة على الإمساك بلوحة الألوان و الفرشاة ، و لكنه كان قادرا بما يكفى على أية حال للجلوس و الرسم.. ربما بصعوبة]

ثم أضاف :

[تظهر لنا لوحات هذه الفترة تقدم "ليوناردو" فى العمر ، علاوة على كون ذراعه اليمنى غير حرة الحركة بشكل كبير ، حتى لتبدو وكأنه كان يربطها بضمادة معلقه بعباءته] (Vezzosi, 1997, p. 38)

و من خلال هذا التحليل يخلص "فيزوسى" إلى تفسير منطقى حول ندرة الإنتاج الفنى لـ"دافنشى" خلال السنوات الأخيرة من عمره ، و كذلك لماذا تبدو بعض أعمال تلك الفترة غير مكتملة. (شكل ٦)

(شكل ٦) دافنشى– العذراء و الطفل و القديسة آن و يوحنا الطفل–
أحد أشهر أعمال دافنشى غير المكتملة– فحم و باستيل أبيض على ورق– ١٥٠٨م
مقتنيات London –National Gallery

النقطة المثيرة للاهتمام فى هذا الشأن هو ما اعترى أعمال "دافنشى" التصويرية المتأخرة من عيوب و "سقطات" غير مبررة فى النواحى التقنية ، مما أدى إلى تهدم أجزاء منها ، وتشوه البعض الآخر (شكل ٧) و (شكل ٨) ، و هو أمر غريب بالنسبة لشخص له قدرات ومهارات "دافنشى" فى مجالات عدة ، علاوة على كونه باحثا فى مجالات الكيمياء و الطبيعة والتشريح، بحيث يمكن تفسير ذلك الإخفاق التقنى فى أعماله المتأخرة فى إطار ما كان يعتريه من أمراض و نوبات اضطراب سلوكية.

(شكل ٧) دافنشى- العشاء الأخير- ١٤٩٨م
العمل الجدارى الأشهر لـ"دافنشى" و الذى استخدم فيه تقنيات مختلفة بحيث أدى امتزاج الوسائط غير المتلائمة لتهدم أجزاء عديدة من العمل.
Milan –Convent of Santa Maria delle Grazie

بالرغم من معاناته من مرض الشلل النصفى لم يتوقف "دافنشى" لا عن الرسم و لا عن تدريس الفن لتلامذته ، و خلال هذه الفترة أنجز دراسة أولية للوحة "العذراء و الطفل والقديسة "آن" ، كما رسم عددا من الرسوم لخيول و قطط و تنانين و دراسات تشريحية ، و تصميمات لآلات متعددة ، علاوة على دراسة سريعة للقديس "جورج".

(شكل ٨) دافنشى- العشاء الأخير
تفصيلية توضح مدى مظاهر التلف فى العمل
نتيجة للتقنية غير الناجحة التى استخدمها الفنان

تُجمع كل الوثائق التاريخية تقريبا على أن "دافنشى" كان يستخدم يده اليمنى ، و لم يكن أعسرا ، و مع ذلك ، يكاد العلماء و الباحثون فى سيرته يجمعون على أن عبقريته فى الرسم و الكتابة تتناسب أكثر مع شخص يستخدم يده اليسرى ، يرجع ذلك إلى أن علماء الأعصاب يعتقدون بأن ميزة الشخص الأعسر العصبية تكمن فى أن النصف النشط من مخه يكون النصف الأيمن و الذي يتواجد به أيضا مراكز الإدراك المكاني و الأبعاد، مما يؤهل الشخص الأعسر لأداء بعض الأنشطة بشكل أفضل.

على سبيل المثال كان "دافنشى" يكتب وثائقه و مذكراته الشخصية بيده اليسرى و بشكل معكوس أمام مرآة ، بحيث لا يمكن قراءة الكلمات– أيضا– إلا من خلال صورتها المنعكسة على مرآة ، على الرغم من أنه لم يرد فى أية مذكرات أو وثائق كتبت عنه أنه استخدم يده اليسرى فى الرسم أو التلوين ، و هو سلوك غريب يتفق مع سيرته المليئة بالمتناقضات والغموض.

المصدر الأساسى حول هذه الملاحظة هو مذكرات "أنتونيو دى بيتيس" " Antonio de' Beatis" ، السكرتير الخاص للكاردينال "لويجى" "Luigi" ، و الذى تكفل– مع سيده– بدفع نفقات زيارة "دافنشى" فى العاشر من أكتوبر عام ١٥١٧م لمقاطعة "أراجون" ، و لحسن حظ المؤرخين الذين بحثوا فى تاريخ "دافنشى" كان "دى بيتيس" معتادا على تسجيل كل شىء فى دفتر يومياته الخاص ، من ضمن ما كتب (و كان أسلوبه أدبيا بعض الشىء) :

[فى العاشر من أكتوبر عام ١٥١٧ ، ذهب السيد "لويجى" كاردينال "أراجون" و بقيتنا لرؤية السيد الفلورنسى "ليوناردو دافنشى" ، المصور الأرفع فى عصرنا ، و الذى عرض للكاردينال ثلاث صور ، كانت إحداها تصور سيدة من فلورنسا (غالبا "إيزابيلا جوالاندا" " Isabella Gualanda") ، و التى نقلها عن الطبيعة بتكليف قوى من "جوليانو ميدتشى" ، الثانية تصور البابا "جون" فى شبابه ، و الثالثة تعرض العذراء و المسيح الطفل فى حجر القديسة "آن" ، و التى كانت أفضل اللوحات الثلاث ، فى الواقع لم يكن لأى منا أن يتوقع أى

اللوحات الثلاث أنجزها قبل أن تصاب يده اليمنى بالشلل ، و أيها تم إنجازه بعد ذلك ، لكن على أية حال فقد كان للسيد "دافنشى" تلميذ بارع بقدر كاف هو "ميلانيس" "Milanese" ، وبالرغم من أن السيد "دافنشى" لم يعد قادرا على التلوين بنفس الجمال المعروف عنه ، فمن المؤكد أنه لازال قادرا على وضع التصميمات و توجيه الغير] (Goldscheider, 1944, p.19)

تكشف يوميات "دى بيتيس" عن حيرته فى تحديد قدرة "دافنشى" على استخدام كلتا يديه فى الرسم ، و إن كان أكثر منطقية لعقله أن يعزو إنجاز الأعمال بعد مرض الفنان الكبير لتلميذه "ميلانيس" بدلا من افتراض أنه قد استخدم يده اليسرى بنفس المهارة و القدرة التى استخدم بها اليد اليمنى.

جاء وصف نهاية "دافنشى" فقط فى كتاب "فازارى" ، حيث أورد فى مؤلفه كيف أن "دافنشى" تحول إلى مجرد شيخ هرم و متعب ، محروم من تناول العديد من أنواع الأطعمة ، وفى الوقت نفسه– كما يشير "فازارى"– أصيب "دافنشى" بما يشبه "مسا شيطانيا" تشارك مع كل مشاكله الجسمانية للقضاء عليه ، فكانت تنتابه نوبات عصبية كانت بمثابة "رسول الموت له" على حد وصف "فازارى".

تكشف الأعمال الأخيرة لـ"دافنشى" عن تلك الحالة العصبية المضطربة ، و التى عكست أسلوبا أقرب للاتجاه التعبيرى (الذى سيظهر فيما بعد خلال الفترة المتأخرة من عصر النهضة "Mannerism"[١٧٠] ، و سيمتد خلال القرنين التاسع عشر و العشرين) ، حيث أصبح "دافنشى" يركز على تصوير نوازل الطبيعة كالأعاصير و العواصف و موجات المد المدمرة من خلال رؤية و معالجة خاصة. (شكل ٨)

يفسر المؤرخون هذه الفترة فى حياة "دافنشى" بأنها "مرحلة تفاقم الأمراض" ، كان الفنان يبدو و كأن مرضا غريبا قد استحوذ عليه فجأة ، و بدا على مشارف الموت بينما كان

[١٧٠]- اتجاه فنى ظهر بعد وفاة الفنان "رافائيل" عام ١٥٢٠م ، كان موجها لطبقة النبلاء و الأرستقراطيين فى إيطاليا ، اتسم هذا الاتجاه بالغرابة و المبالغة فى العناصر و العلاقات التصميمية ، و كان فنانوه يرون أن الطبيعة مصدر إلهام- سيرا على نهج أساتذة عصر النهضة الاوائل- إلا أنها "خشنة و بحاجة إلى إعادة صياغة".

يتحدث لملك فرنسا الذى جاء بنفسه فى زيارة تاريخية شهيرة ليقابل صاحب هذه الموهبة الفذة ، وتذكر الوثائق أنه لفظ آخر أنفاسه بين ذراعى الملك.

(شكل ٨) دافنشى- كارثة طبيعية- فحم و قلم و حبر على ورق- ١٥١٨م
مقتنيات Windsor-Royal Library

من خلال الوصف الذى أورده "فازارى" فى مؤلفه يمكن تصور كيف فجعت إيطاليا كلها لوفاة هذه العبقرى المبدع ، حيث جاء فى كتابه :

[أخيرا جاءت النهاية ، بعد عدة أشهر من معاناته و سوء حالته ، كان يرى نفسه محاطا بفئران حقول الموت ، و بالنحيب و الدموع ، و قريبا من البابا ليدلى باعترافه و يعلن توبته، بينما بدا أتباع القربان المقدس و كأنهم يتلقون غنيمة بينما كانوا يلتفون حول سريره ، يراقبون ألمه و عذاب روحه التى أساءت– فى نظرهم– لله و للإنسان فى الفن لأنها أخلصت للفن و قدمت فيه ما يليق ، و آنذاك جاءت نوبة من رسائل الموت ، فرفع الملك رأسه بين ذراعيه لعله يخفف عنه ما تعانيه روحه من ألم ، ربما لم يكن هناك ميتة أشرف من أن تكون آخر أنفاسه بعد سبع و ستين عاما فى أحضان الملك] (Vasari, 1550, 67)

كان موت "دافنشى" فاجعة أصابت إيطاليا ، بل أوروبا كلها– بصدمة غير مسبوقة ، فقد رحل ذلك المبدع بعد معاناة لم يقف أحد على سرها آنذاك ، و هو الذى عاش محبا للحياة ، محتضنا لتلاميذه و أصدقائه ، متوحدا مع عناصر الطبيعة ، و لعل الوصف الذى أورده "فازارى" لوفاة "دافنشى" يكشف عن العقلية الرجعية التى رأت ذلك العبقرى الفذ عدوا عاش فى خصومة مع الله ، فكان جزاؤه ما لقى من عذاب و معاناة فى أواخر عمره..!!

فى عام ١٩٩٩م قام العالمان "فيلبيس" "Phillips" و "سيجاسوزى" "Segasothy" بمراجعة الفوائد العامة وكذلك الأعراض الجانبية المصاحبة للتغذية النباتية ، وقد تمكن العالمان من استنباط قدرة التغذية النباتية على تقليل احتمالية الإصابة بأمراض الجهاز الدورى وحماية القلب وذلك من خلال عدة طرق أهمها تقليل كوليسترول الدم ، و تقليل نسبة حدوث الجلطات (Phillips and Segasothy, 1999, p.40) ، و من قبلهما قام العالم "جيلمان" فى عام ١٩٩٥م بمراقبة ٨٣٢ من النباتيين ولمدة عشرين عاما ، و قد لاحظ العالم انخفاض احتمالية الاصابة بالجلطات الدماغية لديهم بنسبة اثنتين و عشرين بالمائة. (Gillman, 1995, p. 52)

و رغم كل ذلك فقد أشارت الدراسات نفسها إلى أن اتباع نظام التغذية النباتية لفترة طويلة قد يؤدى- بالعكس- إلى حدوث أعراض جانبية أخطرها الجلطة الدماغية نتيجة لضيق ما يسمى طبيا بالـ"شريان السباتى" ، و ذلك أن احتواء بعض النباتات على نسب عالية من الزيوت المشبعة قد يؤدى إلى زيادة الكوليسترول، و بالتالى حدوث التصلب العام للشرايين ، و حتى مع الاستهلاك المستمر للنباتات التى لا تحتوى على تلك الزيوت المشبعة ، فإن تأثير ذلك يكون سلبيا على هرمون الأنسولين وتأثيره المهم فى تخليق انزيم اوكسيد النيتريك المهم فى الحفاظ علي سلامة الأوعية الدموية.

كل هذه النظريات تشرح السبب حول تفاقم المرض فى سنوات "دافنشى" الأخيرة ، وتفسر بشكل منطقى تراجع مهاراته و قدرته المتفردة على الإنتاج و الإبداع ، إذ تؤكد النظريات العلمية فى هذا الشأن أن بعض المراكز الموجودة فى المخ و المسؤولة عن الشعور و تحديد السلوك يعتريها بعض الخلل نتيجة الجلطة الدماغية التى أصيب بها "دافنشى" ، يفسر هذا تلك النوبات التى كانت تنتابه ، و وصفها معاصروه بأنها "مس شيطانى" ، كما تفسر هذه النظريات بشكل كبير لم اختلف أداء "دافنشى" فى أوخر أيامه ، و غلبت عليه تلك المسحة التعبيرية التى تعكس اضطرابا عصبيا و سلوكا غير مستقر بشكل عام.

لقد كان "دافنشى" ظاهرة ، لا فى عصر النهضة ، و لا فى إيطاليا وحدها ، و إنما تجاوزت عبقريته حدود الزمان و المكان ، و بالرغم من هذا ، فلا شك أن جزءا كبيرا من تلك العبقرية يقف خلفها سلوك غير مألوف ، أدى فى النهاية إلى تحول كبير فى أداء "دافنشى" و رؤيته الفنية ، و لازال يلقى بظلال الغموض حول الكثير من تفاصيل حياته و أعماله ، ويجعل منه مادة ثرية للبحث المستمر.

نتائج البحث

من خلال ما تم استعراضه فى البحث السابق يمكن الوقوف على عدة نتائج يوجزها الباحث فيما يلى من نقاط :

أولا : عاش "دافنشى" متوحدا مع الطبيعة ، مقدسا لكل أشكال الحياة ، حتى أن بعض المؤرخين فسر سلوكه بأنه أقرب لأتباع البوذية و الهندوس ، و كانت أعماله دائما تجسيد لهذه المعتقدات.

ثانيا : كان النظام الغذائى الذى اتبعه "دافنشى" سببا فى اعتلال صحته فى سنواته الأخيرة ، وأدى إلى أن ظهور أعمال عدة بشكل منقوص ، مفتقدة للدقة فى التقنية و الأداء.

ثالثا : اعتمد "دافنشى" على تلاميذه فى إنجاز أعماله فى الفترة الأخيرة من حياته ، و ذلك بعد أن أدى نظام التغذية النباتى الذى كان يتبعه فى إصابته بجلطة أدت إلى حدوث شلل فى ذراعه اليمنى.

رابعا : غلب على أعمال "دافنشى" فى سنواته الأخيرة أداء تعبيرى ، و كان أداؤه تجسيدا لتلك الاضطرابات العصبية نتيجة للجلطة الدماغية التى أصيب بها ، و تلك الإصابة تفسر ما وصف فى عصره بأنه "مس شيطانى" كان ينتابه من وقت لآخر.

التوصيات :

و فى النهاية يوصى الباحث بالتعمق فى دراسة السيرة الذاتية للفنان "ليوناردو دافنشى" ، حيث لازالت الوثائق التى تتكشف كل يوم عن حياته و فنه تلقى المزيد من الضوء عن سمات فنان يعد أيقونة عصره ، و هو الأمر الذى من شأنه أن يرسم صورة متكاملة عن ظروف العصر و أفكاره و ثقافة مجتمعه ، و يثرى حقل الدراسة فى مجال تاريخ الفنون.

على الجانب الآخر فإن البحث فى العلاقة بين السلوك المرضى و الإبداع فى سيرة المبدعين سواءا كانوا فى حقل الأدب أو فى مجال الفنون البصرية أو مضمار الموسيقى أو غيرهم من شأنه أن يعيد صياغة المفاهيم الاجتماعية و الثقافية حول كيفية التعامل مع ذوى القدرات الخاصة ، و ذوى الإعاقات ، و السير قدما فى طريق الاستفادة من هذه الطاقات البشرية و توظيفها على النحو السليم بما يفيد المجتمع و يثرى الحركة الثقافية و يدفع بعجلة الفنون نحو التطور و الارتقاء بالإنسان.

مصادر البحث :

* Bogousslavsky, J- Writers Disorders - Front Neurol Neurosci- Pasel- Karger- 2005.

* Bramly, S- Leonardo : Discovering the Life of Leonardo da Vinci- (Reynolds S: English Translation)- Staten Island- Brainiac Books- 1991.

* Gardener, H- Gardener's Art through the Ages- ed II- Boston- Wadsworth- 1975.

* Gillman, MW & Cupples, LA & Gagnon D & Posner BM & Ellison RC & Castelli WP et al: Protective Effect of Fruits and Vegetables on Development of Stroke in Men- JAMA- 1995.

* Goldscheider, L- Leonardo da Vinci- ed 2- London- Phaidon Press- 1944.

* Hennerici, M. G- Neurological Disorders and Creation- Front Neurol Neurosci- Pasel- Karger - 2010.

* MacCurdy, Edward- The Mind of Leonardo da Vinci- Phaidon Press-1928.

* Muntz, E- Leonardo da Vinci, Artist, Thinker, and Man of Science- London- Heinemann- 1898.

* Phillips PA and Segasothy M- Vegetarian Diet: Panacea for Modern Lifestyle Diseases? QJM- 1999.

* Richter, JP- The Literary Works of Leonardo da Vinci Compiled and Edited from the Original Manuscripts by Jean Paul Richter: (Commentary by Carlo Pedretti- Berkeley- University of California Press- 1977.

* Vasari, G- The Lives of the Most Excellent Italian Architects, Painters and Sculptors - University of Chicago Press- 1980.

* Vezzosi, A- Leonardo da Vinci: The Mind of Renaissance (translated from French)- New York- Abrahams- 1997.